

الآثار الأيوبية

في دمشق

للدكتور أسعد طلس

عضو المعهد الفرنسي بدمشق

إذا نحن استثنينا الجامع الأموي ، وبعض أبواب المدينة ، وبعض كنائسها ، لم نجد في دمشق آثاراً ذات شأن قبل العصر الأيوبي ، الذي تزخر دمشق بآثاره وتغمره ، ولا نعرف كتاباً عربياً على دراسة هذه الآثار من الناحيتين العلمية والفنية . أما باللغات الأجنبية فأنك واجد كتباً كثيرة وأجدها بالذكر ما يأتي :

١ - آثار دمشق التاريخية : (بالفرنسية) للأستاذ الدكتور جان سوانجر J. Sauvaget عضو المعهد الفرنسي بدمشق سابقاً والأستاذ بجامعة باريس حالياً وأهم كتابه *Les Monuments Historiques de Damas* وهو كتاب في ١١٦ ص بالقطع المتوسط استقصى فيه آثار دمشق التاريخية من أيورية وغير أيورية ، مصحوبة بتفسيرات تاريخية وملاحظات فنية تعين من يريد الاستلاع على تاريخ الفن المهادي الإسلامي في هذه المدينة . وقد أمان القارئ بكثير من الرسوم والمخططات والقطاعات التي تيسر له عمله . والكتاب من مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٣٢

٢ - الآثار الأيوبية في دمشق : (بالفرنسية) وهي مجموعة يصدرها المعهد الفرنسي بدمشق باسم *Les Monuments Ayyoubides de Damas* صدر منها الجزء الأول في ٥٠ ص من بالقطع الكبير مع ١١ لوحة فطوغرافية طبعت بباريس سنة ١٩٣٨ كتأليف E. de Bezaud وقد بحث فيه عن « قبة صفوة الملك » و « دار الحديث النورية » و « قبة فرخشاه » و « بهرام شاه » و « المدرسة الجهاركية » . وعما قبل ، ينشر القسم الثاني وسيتنظم البحوث الآتية : « المدرسة الزينجانية » و « المدرسة الغدراوية » و « المدرسة الميرية البرانية » و « المدرسة العادلية الكبرى » و « ثلاثة حمامات أيورية » . والقسم الثالث مستدر في « قبة البدرى »

٣ - كتاب دمشق Damaskus : (بالألمانية) للمشترفين الألمانيين K. W. Watzinger و G. Watzinger وهو كتاب ضخم في مجلدين ، أولهما في دمشق وآثارها قبل الإسلام

كانت سيدة جليلة محنكة ، أدارت دمشق وأعمالها إدارة حسنة بعد زوجها الأول ، هي وزوجها الثاني الأتابك ومات سنة ٥١٣ . واليك نص مؤرخ دمشق في تلك الفترة أبي ليلة حمزة القلاسي «... وعاد ظهير الدين أتابك متكفلاً إلى دمشق عقب هذا الظفر ودخلها يوم السبت لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ٥١٣ فصادف الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق ابن السلطان تاج الدولة تنش ابن السلطان الب أرسلان قد تمكها المرض وطال بها . وقد أشفت على الموت وكانت لقدمه متروقة وإلى مشاهدته متظلمة فأحركها وشاهدها وسمع مقالها وقبل وصيتها وأتمت القليل وتوفيت إلى رحمة الله ومغفرته ورضوانه بين صلابي الظفر والمصر من يوم الأحد آخر جمادى الأولى سنة ٥١٣ ودفنت عند ولدها في القبة التي بنيتها على القلعة المعلقة على الميدان فلقد كانت من النساء المصونات المحبة للدين والصدقات والنزه عن الظلم يطلب الخيرات (١)

وأما دقاق ابنها فهو الأمير شمس الملوك دقاق بن تنش الساجوق ملك دمشق وإعمالها من سنة ٤٨٨ — بعد وفاة أبيه وكان الدبر لأموره الأمير طغتكين أتابك برصية من أبيه (٢) — إلى سنة ٤٩٧ وفي هذه السنة عرض له مرض تطاول به ووقع معه تخليط الغذاء وانقطع الرجاء من دافئه فتقدمت والدته الخاتون صفوة الملك إليه أن يوصي بما في نفسه ولا يترك أمر الدولة سدئ فأوصى للأمير ظهير الدين طغتكين بحضنة ولده الصغير تنش إلى أن يكبر وتوفى رمضان تلك السنة . هذا ما يقره المؤرخ ابن القلاسي (٣) ويذكر ابن عساكر أن دقاق ولي إمارة دمشق بعد أبيه سنة ٤٨٧ . وذهب هو وطغتكين المعروف بابي بكر زوج أم الملك دقاق . ثم حصل له مرض تطاول به فأت في رمضان سنة ٤٩٧ فغلب طغتكين على دمشق وقيل أن دقاق مات سنة ٤٩٣ وأن أمه دست له جارية فسمعت في عنقود غيب معلق في شجرته نقشة مارة فيها خيط مسموم (٤) . وعندنا أن هذه القصة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة لأمور منها (أولاً) أن دقاق كان على اتفاق مع زوج أمه طغتكين في حياته وحين وفاته ولولا ذلك لما أوصى إليه بامنه الصغير تنش (ثانياً) أن ابن القلاسي لم يذكر شيئاً من ذلك وهو أقرب عهداً بالمصر من أبو عساكر (ثالثاً) أن ابن عساكر ذكر الحقيقة التاريخية أولاً ثم عقب عليها بالقصة ذاكرةً إليها بصيغة التضييف . وقد نقل هذه القصة أيضاً النعماني في كلامه عن الخانقاه

الزاهية ولكنه مؤرخ متأخر لا يعتمد على ما يرويه عن غير عصره

(١) في تاريخ دمشق لأبي القلاسي ص ٢٠١ طبع H. F. Ameluz . المطبعة الميمنية ببيروت سنة ١٩٠٨ (٢) في تاريخ دمشق لأبي القلاسي ص ١٣١ (٣) المصدر السابق ص ١٤٤ (٤) تاريخ دمشق لأبي عساكر ج ٥ ص ٢٤٧

٥٠٤ هـ كما تفيد أنه كان إلى جانبها مشهد. وتفيد عبارة ابن القلانسي أن القبة كانت على القلعة المطلة على الميدان الأخضر — المعروف الآن بالمزج الأخضر — وتفيد عبارة ابن القلانسي أيضاً أن صفوة الملك دفنت عند ولدما قبل دفنت هي وأبناؤها في قبر واحد ونحت قبة واحدة أم كان هناك قبران وقتان ؟

يرى الأستاذان سوفاجه وإيكوشار أن هناك قبرين وقتين لأن دقاق مات قبل إمامه ولا يمكن أن نفرض أن جثمان الأم وضع فوق جثمان الابن لأن تاريخ بناء القبة كان سنة ٥٠٤ أي بعد موت دقاق بسبع سنوات. ثم إن المكتوب على الباب ينص على أن هذا المهد كان يحتوي على قبة القبر (التربة) وعلى المشهد. والمعروف أن قبة دقاق كان إلى جانبها مسجد كبير كما يقول ابن عساكر في الفصل الذي عقده عن مساجد دمشق. وإليك نص عبارته «... (ومسجد) آخر كبير في قبة قبر الملك دقاق المعروف بقبة الطراويس في الرباط الذي بنته خاتون أم دقاق^(١)» وليس في قبة صفوة الملك شيء من ذلك — كما وصفها من رآها — ولم يكن إلى جانبها أثر لمسجد كبير^(٢). ونقول إن المؤرخين متفقون على أن قبر دقاق المشهور باسم قبة الطراويس أو خاتماه الطراويس أو الطاووسية كان يقع بين المدرسة العزية البرانية — وهي إمام حديقة التجوز اليوم — وبين الخانقاه البوليصة المعروفة اليوم بجامع الطاووسية. وهذه الأوصاف تنطبق تمام الانطباق على أوصاف قبة صفوة الملك كما بعدها الأستاذان سوفاجه وإيكوشار وأصحاب كتاب Damascus. فهل كانت قبة صفوة الملك إلى جانب قبة ابنها دقاق بحيث تكون الأوصاف واحدة ؟ ثم إن الرخامة تنص على أنه كان إلى جانب قبة صفوة الملك مشهد، والمؤرخون يذكرون أنه كان إلى جانب قبر دقاق مسجد كبير، فهل المشهد والمسجد الكبير شيء واحد ؟ إن الذين رأوا قبة صفوة الملك قبل اندثارها لا يذكرون لنا أنه كان إلى جانبها آثار مسجد كبير. أفيمكننا بعد هذه الأسئلة كلها أن نقول أنه كان إلى جانب قبة صفوة الملك ومشهدها قبة ابنها دقاق ومسجدها الحق أنه لا يمكن القطع بذلك فإن النار التي شئت في تلك الناحية سنة ٦٢٦ وأصاب الخانقاه الطاووسية كما يذكر النعماني، ذهبت بكثير من معالم تلك المعاهد ثم إن كثر الزمن غمنا من القطع بشيء.

«وصفها» : بنيت صفوة الملك في بقعة مستطيلة من الأرض طولها ٣٠ متر وعرضها ١٥ متر وكان لها حجة حجرية شمالية. حصة البناء فيها الباب ومن فوقه الرخامة ويقابل هذه الجبهة حصة جنوبية فيها شباك ضخم يقابل الباب. وفي المأطمين الشرقي والغربي شبا كان كبيران من فوقهما كوة. وفي وسط بقعتها المستطيلة غرفة مربعة الشكل من فوقها قبة وإلى

جانبى الغرفة المربعة غريفتان مستطيلتان من فوق كل واحدة منهما نصف قبة
 ﴿بناءها﴾ : كانت حيطانها مبنية بحجارة صغيرة غير متقنة الصنع أو مجرد أخرى
 مرصوفة رصفاً غربياً ترى فيها الحولاء والصوان والمرمر الأبيض وغير ذلك كما ترى القدد
 الخشبية فصل بين الجزء والجزء من أقسام الحائط

وأما الأقواس أو الخنايا والقباب فمن الآجر المطبوع وهو نوعان (الاول) حجمه
 $٢٣ \times ١٥ \times ٤$ سنتيمترات و(الثاني) $٢٦ \times ١٩ \times ٦$ سنتيمترات

وأما نصف القبتين فيقومان على سطح كثير الزوايا متجهة نحو القاعة المربعة وفي كل زاوية
 من زاويتي نصف القبة كوة داخلية مقنطرة بـ ٤٥ درجة وبينهما كوة صماء تقع فوق الباب
 ومن فوق ذلك نصف القبة الحسن الشكل البارز البناء . اما سمك حيطانها — من الأرض
 حتى نصف الحائط — فقريب من ٤٥ سنتيمتراً (١٩ + ٢٦ سنتيمتراً، ومن منتصف الحائط الى
 فوق يأخذ الحائط في الرفة حتى يصح ٢٦ سنتيمتراً فقط وانما صنع هذا ليبنى له ان يماشي
 سمك قوس نصف القبة . واما القبة فيظهر انها كانت مبنية على هذا النمط المعين الذي رأيناه
 في بناء لمعى القبتين ، وينبغي ان يلاحظ ان براعة الباني قد تجملت في القسم الذي يصل
 لمعى القبتين بالقبة العظمى فقد راعى في ذلك اموراً فنية جد دقيقة ^(١) . وحيطان القبة
 والغرفتين وبقية الحيطان مكسوة بقشرة رقيقة من الجص الأبيض غطت الحجارة الصغيرة
 المختلفة التي بنى بها البناء

﴿نقوشها وزخارفها﴾ : زخارف القبة ونقوشها محدودة جداً . واذا صرفنا النظر عن
 البراعة في بناء لمعى القبتين والكوى والاطارات الجصية البديعة التي تحيط بالكبابيك
 والمحارب لم نجد شيئاً يذكر سوى الزخارف الكتابية وهي زخارف كتابية كوفية مخطومة
 بالصين الأزرق المائل الى السواد بقاعدة فنية عجيبة في هندستها وقد نشرت في كتاب
 Les Monuments Ayyoubide وهي :

«بسم الله الرحمن الرحيم إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه
 وسلموا تسليماً صدق الله العظيم » . ويظهر ان اسم الطواويس والطاوسية قد جاء هذه القبة
 من رؤوس « الآفات » التي تشبه ذبول الطواويس

﴿مزاياها وخصائصها الفنية﴾ : كان لهذا المعهد مزايا فنية كثيرة — فضلاً عن قيمته
 التاريخية — لانه أقدم أثر اسلامي في دمشق ولانه الأثر الوحيد الذي يوحى به المعهد
 السلجوقي ولانه يمثل لنا نوعاً من طراز البناء السويدي الاسلامي الذي يمتاز بطابع خاص ،
 ولبت دمشق كانت تحوي آثاراً أخرى ترجع الى تلك الفترة حتى نستطيع ان نقول ان اثنين شيئاً

واضحاً من المزاييا والخصائص الفنية لبناء السوري الاسلامي في العصر السلجوقي ، ولكن إن لم يبق شيء من تلك الحقبة فإن في الآثار التي جاءت من بعدها قليل — كما ثار نور الدين — لنوراً يضيء لنا السبيل ويبين لنا شيئاً من طرز البناء السوري وزخرفته في العصر السلجوقي يقول الأستاذان سوفاجا وايكوشار « إن تعيين مزاييا هذا العهد العمرانية عسير جداً لأمرين (أولهما) تداعي البناء تداعياً واضحاً يمنع تبين تلك المزاييا (وثانيهما) أن الثروة الاسلامية في الفن المهادي في الشرق الاسلامي لما نزل معالمها غير واضحة لقص كثير من النواحي الفنية ولعدم الاتفاق على الخطوط التي تبين مزاييا كل قطر اسلامي وخصائصه التي يميزه عن الاقطار الاخرى ولكن مهما يكن من شيء فإن قبة صفوة الملك التي أُنشئت في قباب بليت بعدها — كقبة البيارستان النوري وقبة التربة والمدرسة النورية — هي من نمط القباب العراقية والفارسية وليس في هذا شيء من الغرابة فإن السلاجقة جاؤوا الشام من تلك المناطق الشرقية. ثم إن هذا الدليل يقوى ويشدد اذا عرفنا ان هذا النوع من القباب المخروطية ذات القباب النصفية في جانبها ، نجده في مدخل البيارستان النوري وقد بني بعد قبة صفوة الملك بنحو نصف قرن ، ويستتبعان من هذا ان القبة التي كانت فوق قبة صفوة الملك كانت من تلك القباب المخروطية ذات النخاريب *de forme conique chargée d'alveoles* وكذلك ينبغي أن يُفترض في العراق عن أصل القبتين النصفيتين الواقعتين الى جانبي القبة المظلى ، فليس من شك في أن هذا نمط عراقي وأنه متأثر بالقباب الفارسية القديمة (١) ثم ان هذا النوع من الأجر الذي بنيت به القبة وحيطانها هو أجزع عراقي الأصل ، وليس من شك في أنه جاء الشام من العراق كما جاء الشام من العراق كثير من ضروب الحضارة والعلم والفن . ثم ان نمط بناء أقواس قبة صفوة الملك هو نمط عراقي لأنها أقواس ذات فلقين (٢) وهذا النمط موجود بكثرة في قصر الأخضر العراقي وفي جامع (٣)

أما الزخارف الكتابية فلها من نمط كتابات بني سلجوق وبني بوري في الشام ولكنها تمت بصلات قوية الى الكتابات الشرقية وخصوصاً في طريقة كتابة « الآفات » وزخارفها (٤) والخلاصة ان هذا العهد يبين لنا كثيراً عما أحذه الفن الاسلامي السوري من الشرق كما أنه يبين لنا ان الآثار السوري الوحيد فيه هو تلك القطعة الحجرية السوداء التي كان الإنهال السوريون يقولون به الأقواس وهذا ما نجده في قفل قوس باب قبة صفوة الملك وما بعدها وقد بقي هذا الآثار في البناء السوري على صور متعددة وخصوصاً في عصر المماليك وللأسف في ذلك هو وجود الحجارة السوداء الخجلة في « الكسوة » بالقرب من دمشق

(١) انظر كتاب Les Monuments Ayyoubites من ١١ واللاحقة رقم ٢٥ و ٢٧ من المجلد ٢ (٢) آخر ٢١ من Bell, Palais au Mosquée Ukhaidir (٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « Arabesque »